

النكامل الثقافي

الأمازيغي العربي

ضمن وحدة العقيدة

الأستاذ حسين عبدوس

إعلامي وباحث

العري تاريخيا ودينيا ولغويا ومن ثمة ثقافيا وحضاريا، وإن كانت لأحداها مميزات وخصوصيات نوعية كتتنوع أشكال التعابير اللغوية والثقافة المحلية والتراث الشعبي إلا أن ذلك جاء بحكم ظروف بيئية وجغرافية وعناصر تاريخية وسياسية متفاعلة حسب حركية المجتمعات التاريخية يطول الحديث في التطرق إليها إلا أن كل هذه العناصر تلتقي في عنصر أساسي أو إن شئنا قلنا " منبعا "

إن المجتمع الجزائري بهويته وشخصيته وما تتضمنان من قيم حضارية ثقافية وتاريخية يعتبر جزءا من الأمة أو الأمة الإسلامية الناطقة بالعربية، على غرار كافة المجتمعات الإسلامية التي عربها الإسلام وأثر بلغة القرآن والوحي فيها، وما أكثرها من الخليج إلى المحيط الأطلسي. وعليه فإننا نجد أي مجتمع مماثل للمجتمع الجزائري في أي قطر عربي حاليا، هو حلقة وصل في سلسلة متكاملة وموثقة

مضمونه عن جميع المعتقدات السابقة بالصدق في تنظيم الأمم والشعوب و في العبادات والواجبات والحقوق.

والمجتمع الجزائري (الأمازيغي) كان معنيا بدوره بهذه "الرسالة"، ولو استقرأنا أحداث التاريخ ومراحله العديدة في هذه الديار، لا تضح لنا أن الأمازيغ، أو البربر كما يسميهم ابن خلدون - لم يقبلوا ويرضخوا في أية مرحلة للغزو أو الاحتلال بالقوة والإكراه لديارهم، وبالأحرى التعايش مع هذا الدخيل ماعدا مع الفنيقيين ومن بعدهم مع المسلمين ، وتصديهم للغزاة يظهر ضد الرومان والبيزنطيين والوندال، وحديثا ضد الأسبان والفرنسيين (1).

وما عرف عن هؤلاء الأمازيغ سوى الشدة و البأس والاستماتة في رد الظلم والثورة من أجل الحرية والكرامة (راجع مقدمة ابن خلدون).

غير أن تقبل الأمازيغ الفتح الإسلامي كان شيئا مخالفا للعادة تماما حيث كانت هناك مقاومة في البداية لاعتقادهم أن هذا الفتح مماثل للاحتلال والأغزاءات السابقة، من

وتصب فيه، وهذا المنبع هو العقيدة "ووجود هذا التنوع الثقافي المحلي هو بمثابة ثراء للرسيد الحضاري في داخل هذه المجتمعات وفي الأمة نفسها كما هو الشأن بالنسبة للمجتمع الجزائري ، الذي لم يحدث أن تناقضت عناصر ثقافته مع الثقافة الإسلامية.

ولا ينكر أي مؤرخ نزيه ، من أن الإسلام يحمل في ذاته ثقافة هامة ولكل البشرية بصفة أشمل وأعم، ومن أهم بؤادر هذه الثقافة هي تحرير العقل من الأوهام وتهذيب النفس إلى السلوك الأقوم امتثالا للآية الكريمة " إن الله يهدي للتي هي أقوم." على أن ممارسة العبادات جسديا ومعنويا هي من صميم ثقافة الإسلام كالصوم والصلاة مثلا ، والترغيب في أمور والترهيب في أخرى عن طريق القصص القرآنية والأحاديث النبوية أيضا من صميم ثقافة التوجيه والتربية على السلوك الحسن تحت في مجملها على الخلق الكريم وتهذيب النفس والحفاظ على الأمانة والمعاملة الحسنة حتى مع الحيوان وذلك لتحقيق آية الاستخلاف.

ومن ثم فإن الإسلام يختلف في

الإسلام لدى الأمازيغ

المتأمل جليا في هذا الحدث أي سهولة تقبل الأمازيغ للإسلام يكتشف أنه من غير المعقول أن يقوم الجزائري الأمازيغي بنشر هذه العقيدة في الأقطار البعيدة الأخرى الغربية عنه، دون أن يعمل على نشرها في بيته ومحيطه بل على نطاق أوسع داخل بلاده وبين كافة السكان وهذا من باب الحكمة القائلة "فاقد الشيء لا يعطيه" "أو من جهل شيئا عاده" من العداوة ومن استفهام آخر في نفس السياق مفاده من غير المعقول ولا من الحكمة أن تقوم جيوش بأكملها بالتضحية بنفسها وتكبد مشاق السفر والزحف لنشر دعوة لا يؤمنون بها عن اقتناع، وهذا رد مفحم على بعض المتقولين من المستشرقين الذين يدعون إجبار طارق بن زياد وجيشه على الزحف من قبل الفاتحين، والعدد بين هؤلاء يثبت هذا الافتراء .

إذن العقيدة الإسلامية اقتناع وهداية، وليست قوة مجال أو معارك في الجزائر، مثل ما حدث في المشرق والصعاب التي صادفت هناك بناء الدولة الإسلامية في القرن الأول للهجري (4) بحيث يطـوّل.

أجل الاستيلاء على الملك ، واستغلال الأرض ومن عليها، وكان هذا الاعتقاد "لو كان صحيحا" كفيل بأن يضاعف من نار الحقد والثأر في قلوب الأمازيغ وتبقى الحروب مستمرة ويرتد الأمازيغ عن الإسلام فيما بعد، لكن الظاهر تاريخيا شيء من هذا لم يحدث ، وما كاد الأمازيغ التأكد من النوايا الحسنة للفاتحين المسلمين ومن صدق هذه الرسالة الإلهية التي حملوها إليهم حتى اقتنعوا بهذا الدين الجديد ودخلوا فيه جماعات وفرادى "وقصة الكاهنة وابنائها الثلاثة الذين وجهتهم لاعتناق الإسلام أكبر دليل عن الاقتناع طواعية (2) واستكملوا مسيرة الفتح جنبا إلى جنب مع الفاتحين إلى المغرب الأقصى ثم الأندلس.

وليس وجودهم في هذه الفتوحات كأقـلمية "لأن ذلك قد يوهم بأنهم جندوا عنوة" في خرجات بعض المؤرخين بل كانوا أغلبية تحت قيادة طارق بن زياد الجزائري الذي كانت قواته من 10 آلاف أمازيغي وألفين من المسلمين الفاتحين (3).

العوامل المساعدة على انتشار

الحنيف، وإيمانهم العميق بتعاليمه التي تدعو للبر والإحسان والمساواة والعدل والحرية والإخاء والتضامن.

3- سلوك الفاتحين الذي تميز بالمرونة وتمثيلهم لهذا الدين أحسن تمثيل ووجد هذا السلوك تجاوبا مع السكان الذين عرفوا بدورهم بالاستقامة وتقديس المثل العليا، والمحافظة على كرامة الناس (7) فتطابقت الأفكار.

4- انتهاء الخلافة الإسلامية منذ بداية الفتح للجزائر سياسة الاعتماد على سكان الأمازيغ في تسيير أمورهم وبلادهم في ظل الشريعة الجديدة التي لم تفرق بين الفاتحين والسكان الأصليين.

5- اندماج الفاتحين في المجتمع المحلي دون اعتلاء أو تمييز أو فروق سلطوية واتباع طريقة التطوع في تحفيظ القرآن وتعليمه لأبناء السكان، وكذلك التوزيع في جني المحاصيل الزراعية وهي من العادات التي شب عليها المجتمع الأمازيغي، و دعمها الإسلام في صفة التعاون.

ففي الوقت الذي تسلط الأمويون هناك للقضاء على الفتن والردة، نجدهم في الجزائر يتعاونون مع القيادات المحلية الأمازيغية بكل ثقة وعلى أساس المساواة، وتولد عن هذه السنة الحسنة والإرادة المشتركة تكوين مجتمع أمازيغي عربي إسلامي ذابت فيه كل الفوارق العربية والجنسية ولم تطل بلاد الأمازيغ والجزائر أمراض الشعوبية (5) التي ابتليت بها المجتمعات الإسلامية في المشرق خاصة ما بعد النهرين.

وهذه السهولة التي تم بها الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر (الأمازيغية) تعود حسب جل المؤرخين (6) إلى أسباب وعوامل منها:

1- الاستعداد النفسي والمعنوي لقبول الأمازيغ أي تحالف مع أية قوة - سيما من الشرق - مناهضة للرومان و البيزنطيين المحتلين الذين عاثوا فسادا في الأرض الأمازيغية، وظلمهم وجورهم للأهالي تجاوز الحدود.

2- سرعة فهم الأمازيغ لمعاني الإسلام

والرومان والأوربيين حديثا، حيث كانت عقدة الجنس تسبقهم في كل أعمالهم (09).

رغبة الأمازيغ في تعلم اللغة العربية

إن اقتناع الأمازيغ بالدين الإسلامي عقيدة أملت الرغبة والشغف إلى تعلم اللغة العربية للتمكن من فهم تعاليم الشريعة في البيئة المحلية ، وتبليغها في الأوطان والأمصار التي أسلمت على أيديهم بلغته أيضا.

وتدل شواهد كثيرة على سرعة تعلم الأمازيغ للعربية منها تلك الخطبة البليغة التي ارتجلها طارق بن زياد باللغة العربية على الفاتحين الذين تطوعوا في الجيش وأغلبهم من الأمازيغ، و يدل هذا أيضا على أن هؤلاء المجاهدين كانوا على معرفة باللغة العربية، وإلا لما فهموا حثه على الصمود في وجه العدو، والتقدم إلى الأمام.

فكانت الخمسون سنة في دخول الإسلام غير كافية لاجادة اللغة العربية وتعميمها كتابة ونطقا لولا الرغبة الملحة في ذلك، وعدم تعصبهم للغتهم تجاه اللغة العربية، ولو حدث هذا التعصب

6- التشابه في بعض الأمزجة وبعض الأعراف وتطابق وجهات النظر في سبل الحياة والاستفادة من الوقت، وهذا يرجع الآراء التي تطرح بأن الأصل الأمازيغي من أصل عربي قدموا من اليمن إلى إفريقيا في أحقاب متوالية من التاريخ(8).

ومهما برزت اختلافات المؤرخين المستشرقين خاصة منهم حول نوايا الفاتحين بين الاحتلال والفتح، إلا أنهم يتفقون كلهم حول السهولة والنجاح الذي حققته هذه الفتوحات من حيث الاندماج والروابط التي تكونت بين الطرفين فيما بعد، كما يجمعون أن الفاتحين لم يعلوا على المجتمع الأمازيغي ولم يستكبروا ولم يفسدوا ، بل امتزجت العلاقات بالمصاهرة والاقتصاد وتوطدت في كافة الميادين المعيشية، وكل من أسلم صار أخا لأفضل لآخر عليه إلا بالتقوى.

هذه الروابط والعلاقات دفعت الأمازيغيين إلى تعلم العربية لفهم الإسلام أكثر واكتسبوا عادات الفاتحين وأخلاقهم وأصبحوا شعبا واحدا دون فروق بين العربي والمستعرب وهو الشيء الذي أعطى نمطا ثقافيا رفيعا لم يحدث من قبل مع اليونان

وثقافة واتصال وعلم.

- انخفاض المستوى الاقتصادي لتلك المناطق بسبب الموقع الجغرافي مما جعل الاهتمام ينصب أكثر على توفير وسائل العيش ، وعدم الاعتناء ببناء المراكز التعليمية إلا فيما بعد

- عدم الاستقرار الأمني للأمازيغيين من جراء الغزوات والهجمات التي يقوم بها الأعداء خاصة الهجمات الصليبية.

- وتواجد هذه اللغة بتنوع لهجاتها لا يتناقض ولا يتنافى مع العربية، لأنها في أغلبها تكتب بالحروف العربية وهذا يعد اثراء لتراث الأمة والملاحظ أن مثل هذه الحالة موجودة في بعض البلدان حيث بقيت لهجات ولغات للتداول اليومي بها بالإضافة إلى لغة وطنية للتعليم والادارة والثقافة كفرنسا وألمانيا وإسبانيا (11).

لقد أثبتت اللغة العربية أنها انتشرت بسرعة كبيرة مع الإسلام الذي كان السبب الرئيسي في انتشارها، وهناك آليات أخرى تضاف إلى الرغبة الكبيرة التي أبداه الأمازيغيون للعربية، وتتمثل هذه الآليات في:

والتفريق بين الدين واللغة العربية كما حدث في بلاد فارس على سبيل المثال - لكنت هناك صعوبة في انتشار الإسلام ولغته لكن شيئاً في ذلك لم يحدث ولم تعرف بلاد الأمازيغ النزاعات الشعبية والعصبيات القبلية في هذا الشأن.

فكان الجزائري الذي يتعلم العربية يحرص أشد الحرص على نشرها بين أهله وذويه، ويسعى دائماً في إتقان النطق بها حتى لا ينحرف في تلاوة القرآن الكريم.

كان الأمازيغ يرون المثل الأعلى في إجادة العربية والتشوق لسماع الحديث بها ولا تزال هذه الرغبة إلى يومنا هذا في المناطق التي لم يدخلها الآباء البيض.

أما بقاء اللغة الأمازيغية وتعددتها واختلاف لهجاتها من منطقة إلى أخرى كالأوراس والقبائل وغرداية وجبال الظهرة وشرشال في التعاملات اليومية رغم التحمس الكبير في تعلم العربية فيعود حسب المؤرخين إلى عوامل هي:

- روح المحافظة الشديدة التي يتصف بها بعض القبائل الأمازيغية سيما في الجبال البعيدة عن التأثير، والإبقاء على لغتها كلغة فلكلور إلى جانب العربية كلغة دين

التشابه بين العربية والأمازيغية

التشابه الذي حدث بين العربية والأمازيغية كما سبق الذكر، اتضحت أسبابه ومعالمه من خلال عنصرين هامين وهما:

- الاحتكاك الأمازيغي بالفنقيين وتأثرهم بلغتهم خلال فترة ازدهار الحضارة القرطاجية التي دامت عشرة قرون، قبل الميلاد والتي شارك العنصران معا في بنائها، مع العلم أن اللغة الفينيقية من اللغات السامية مثل العربية وشبيهة كثيرا كما أثبتت الدراسات والأبحاث.
- ان اللغة الأمازيغية ذاتها من اللغات المتفرعة عن اللغة السامية (15)، ولذلك انتفت اوجه التناقض والتنافر بين العربية والأمازيغية، وحل محلها التكامل والتناغم.
- أما العنصر الأساسي الذي لا يخفى فهو سرعة الأمازيغ في انشاء مدارس صغيرة ملحقة بالمساجد لتعليم القرآن والسنة النبوية، وتدعى إلى يومنا هذا (بالمسيد) وهي كلمة تعني المسجد بالتخفيف ليسهل استعمالها وتمييزها عن المسجد نفسه كمكان للعبادة وجواره المسيد مكان للتعليم.

- تشابه اللغة الأمازيغية (بلهجاتها المتنوعة مع اللغة العربية في النطق ومخارج الحروف وفي كثير من الأحيان في المضمون كلمة (أخام) الذي هو البيت أو الخيمة، وكلمة (تامطوث) المأخوذة من كلمة الطمث الذي هو صفة خاصة بالمرأة، ويجمع على كلمة (الخالاث) المأخوذة من الخائة، بالإضافة إلى اتحاد مخارج الحروف (كالغاء، والغاء، والضاء، والشاء...).

عدم توفر سكان الجزائر وشمال إفريقيا على لغة راقية مكتوبة في المستوى الذي يجعلها تقف في وجه العربية، بحيث كانت اللغة الأمازيغية لغة مشافهة (13).

- مناصبة الأمازيغ العداء للرومان و البرنطيين ولغتهم لأنها في اعتقادهم لغة المحتل التي يجب تجاهلها، مطلقا.

- انتشار المسيحية واليهودية بعد دخول الإسلام وهي تقريبا ظاهرة لم تحدث في أي مجتمع إسلامي آخر (14)، وكان ذلك نتيجة السرعة التي انتشر بها الإسلام، وكاد القرن الأول الهجري ينتهي حتى كان سكان الجزائر مسلمين تحت راية دولة وطنية مسلمة.

داخل المجتمع الجزائري بهدف التفرقة و إثارة الفوضى، إلا أن ذلك كان يصطدم بوحدة الشعور والإحساس والمصير المشترك لدى كل السكان الجزائريين بسل المغاربة عموماً (17).

والمؤكد أن هذا الشعور المشترك بوحدة التاريخ والدين واللغة والثقافة مما جعل المجتمع الجزائري شرقه وغربه شماله وجنوبه وحدة مترابطة (98) وقوية بخصوصيات ثقافية متنوعة متكاملة وغير متناقضة مع الدين الحنيف التي تطورت في أحضانه.

علاقة الإسلام بالثقافة الأمازيغية

قد لا تجد شيئاً في حياة المجتمعات البشرية ألصق بالثقافة من الدين واللغة وإن كانت علاقة اللغة واضحة وجلية بالنسبة للثقافة، فإن الدين الإسلامي بلغ من تأثيره في الثقافة الأمازيغية، درجة كبيرة تجعلنا نتساءل لماذا لم يحدث ذلك في المسيحية في عهود غابرة أو في العهود الحديثة من الاستعمار الفرنسي الأخير للجزائر الذي حاول بكل الوسائل إدخال المسيحية وترسيخها في المجتمع الأمازيغي ولن يفلح

وتعتبر المؤسسات الأولى التي أنشئت بعد الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا وبها انتشرت العربية وعلومها (16).

وكانت هذه المؤسسات تبنى من المحسنين أو عن طريق التوزية وتوقف على التعليم والعبادة وتوقف معها ممتلكات وأراضي بغرض تحويلها وسد احتياجاتها (17) وفي النصف الثاني من القرن الأول الهجري عرف انتشار كبير لهذه المؤسسات في البيئة الأمازيغية لشمال إفريقيا.

وكان حب الأمازيغ للعربية دفعهم إلى الإبقاء على درجات عالية في العلم والشعر والخطابة والعلوم الإسلامية، وحتى الفلك والرياضيات، وزالت نهائياً تلك العقدة تجاه الفاتحين (بالنسبة للغة) وتولد عن هذه الحركية امتزاج عضوي (عربي وثقافي) فذاب العرب عرقياً في العنصر الأمازيغي، وانصهر الأمازيغ ثقافياً في العرب واضحى يكون الجميع يكون مجتمعاً ذا دين واحد ودولة واحدة، تجلت قوتها في الدولة الرستمية ثم الحمادية و الموحدية والفاطمية، و لئن حاولت التقسيمات الاجتماعية والسياسية الناتجة عن الهجمات الصليبية والهيمنة الاستعمارية أحداثها

تلك السلوكات لم تمنع في الاندماج الجزئي ثم الكلي ، فتشربت من الإسلام بالقدر الذي جعلها تتخلص من عادات وسلوكات مخالفة لتعاليم هذا الدين، والثقافة الإسلامية بدورها ضمت واحتضنت الثقافة الأمازيغية، وسار الموكب على هذا التناغم و ازدهرت الثقافة الإسلامية وأصبحت ثقافة عالمية خاصة في القرون الوسطى وفهم الأمازيغ بدورهم معنى الآية الكريمة (...إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) الآية 92 من سورة الأنبياء .

اختفت كل الفروق والخلافات العرقية فتمكن الأمازيغ من تعلم اللغة العربية وألفوا بها كتباً وارتقوا بها إلى مناصب عليا في السياسة والتجارة والتعليم واستحسنوا ذلك، وتجاوزت شهرتهم حدود الإقليم إلى أوروبا، والشرق وتصبح في هذه الفترة الثقافة الأمازيغية جزءاً من الكل وهي الثقافة الإسلامية، وخاصة فإن الثقافة الأمازيغية تنقصها الكتابة مما أدى ببعض الفقهاء والمشايع إلى استعارة الحرف الأبجدي العربي لكتابة الأمازيغية (21).

في ذلك رغم المدة التي طالت أكثر من مدة الفتح الإسلامي الروماني أكثر من 04 قرون والفرنسي 132 سنة والفتح الإسلامي 50 سنة (19).

ولا يستطيع أي كان تقليل الحدث بأسباب أكثر من التي سبق ذكرها في هذا الموضوع، من أن الوجدان الثقافي الأمازيغي احتواه الإسلام بكل أبعاده وظروفه وهو الدين الوحيد الذي يضمن القيم الإنسانية صراحة، ويلغي تلك الفوارق والتقسيمات الاجتماعية وفق ما ورد في القرآن والسنة ((لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)) حديث متفق عليه،

ذلك أن الإسلام واضح التعاليم والمعالم ظاهره باطنه، وليس كالأديان الأخرى التي يتجلى فيها الخلاف بين الباطن والظاهر أو التحريف لمصلحة خاصة للفرد أو الجماعة ومن هنا نشأت علاقة طردية بين الإسلام والثقافة الأمازيغية كل يكمل الآخر مع جعل القرآن والسنة مصادر لها بحكم ارتباطها بالوحي والعالم العلوي (20) الذي يوجه السلوكات والتصرفات وفق قواعد الكمال للإنسان .

والثقافة الأمازيغية وبحكم قربها من

وحدة حقيقية في دينها ولسانها (23).

إن الإجابة التي ستفهم القافزين عن الحقائق التاريخية والمزيفين لأحداثه هي الواقع الذي لا ريب والذي قدم صورة حية للتراث اليومي بين العرب و الأمازيغ ، من مصدر الإسلام رسالة حضارية جاءت لتحافظ على كرامة الإنسان وتضمن حقوقه وتوفر له المناخ لتعمير الأرض.

الأبجدية العربية في كتابة الأمازيغية

ذهب الأمازيغ في تأثرهم بالدين الإسلامي ولغته إلى أبعد الحدود، فبعد أن كانت الرغبة شديدة في تعلم العربية لفهم الإسلام، تطور طموحهم وارتفع إلى درجة التفكير في استعارة الحروف الأبجدية العربية لكتابة الأمازيغية، بغية الخوض في غمار التأليف من جهة ومن جهة ثانية تقرب فهم الشريعة الإسلامية من بعض المناطق المحافظة والمعزولة والتي لا تزال الأمازيغية مستعملة بالأغلبية (24) لدى السكان، وقد يضيف بعض الباحثين في اللسانيات عاملا ثالثا أو هدفا ثالث وهو بغية ترقية اللغة الأمازيغية إلى مصاف اللغات المكتوبة وتحريكها من جمودها وسباتها الطويلين،

ومما زاد من شأن الثقافة الإسلامية رقيا لدى الأمازيغيين استجابة هذه الثقافة لطموحاتهم العلمية والحضارية، خاصة ذلك الكم الحضاري الثقافي الذي حمله أهل الأندلس الجزائر بالخصوص التي توافد عليها الأندلسيون بكثرة عكس ما حدث في المغرب وتونس وذلك حديث يطول.

وهذه الفنون المنقولة من الأندلس امتزجت بالثقافات المحلية و أعطت نتائج في غاية الأهمية في تأليف الكتب العلمية والرياضية والفلك وعلم البحار والجغرافية اضافة إلى العلوم الدينية واللغوية كإبن عسير وشرح خليل والأجر و مية (22) ولايتسع المقال لذكر هؤلاء الاعلام ومؤلفاتهم ووظائفهم.

كما أضيفت فنون جديدة كالنحاس وصناعة الحلي، إلى صناعة الفخار والنسيج والخشب، و انصهرت الثقافة الأمازيغية في هذه الثقافة الجديدة التي وجدت بيئة خصبة و مناخا ملائما فترعرعت وتصدت لأي تشويه ووقفت متصدية لأي غزو، كانت المنبع الأصيل والهوية الخالصة النقية للشعب الجزائري.

ولا وحدة ثقافية لأي مجتمع بدون

وتعبر عن وجدانه.

لكن عالم الساميات رينان (القرن العشرين) يرى أن الأمازيغي بجذوره العميقة وتاريخه العميق وإرثه السامي اعتبر الأبجدية العربية هي الشكل المتطور للأمازيغية القديم وقال في هذا الشأن : "منذ زمن بعيد قبل تأسيس قرطاج كان تأثير الجنس الكنعاني قد تمرس في كل الشمال الإفريقي، و إن الأبجدية المكتشفة في هذه النواحي دليل على التأثير المتواصل والمتكرر عبر الزمن (26).

وبالفعل كان هذا الرأي سديدا من حيث تقبل الأمازيغ استعمال الخط العربي وأبجديته كوسيلة لكتابة الأمازيغية، ويتضح ذلك أكثر في أنه لأول مرة في تاريخ هذه المنطقة وفي تاريخ لغتها وحضارتها ثم هذا التلقيح وانتج مؤلفات وكتب في اللغة الأمازيغية بالخط العربي وتقرأ بدون بصعوبة على مستوى دواوين الحكم أو لدى الرعية ، ولئن كانت معظمها مؤلفات عقيدية الغاية منها نشر الدعوة الإسلامية على نطاق واسع في مناطق الأمازيغ كما سلف الذكر التي هي لم تتعرب بعد إلا أن العبرة التي استوقفت الباحثين والدارسين هي تلك

ونلاحظ جميعا كيف ستتطور هذه الفكرة وتأخذ مكانتها لتصبح الأمازيغية مكملة للعربية في نشر الإسلام وفهم تعاليمه ومن دون أي تناقض أو تنافر في كل المجتمع الجزائري.

إن بداية الحديث عن استعمال الأبجدية العربية للغة الأمازيغية ينطلق من تساؤل أحد الباحثين في علم اللسانيات وهو الفرنسي هنري باسي في القرن التاسع عشر حيث يقول ((لماذا لم يسجل الأمازيغيون لغتهم إلا بالأبجديتين الساميتين الفينيقية ثم العربية)) ويجب على تساؤله بشيء من التحليل ويقول ((إن الأمازيغي لم يتطور مع الكتابات الأخرى)) المقصود ((اليونانية والرومانية)) ولم تستغ في نفسه سوى هاتين اللغتين الساميتين لكونه هو منحدر من السامية وهما القريبتان في النطق والتعبير (25).

أما إهمال الأبجدية اللوبية والتخلي عن تيفيناغ يعود حسب هذا الباحث إلى أنهما كانتا ثقيلتين بالرغم من ثرائها، سارهما الأمازيغي بحنكته وفطنته من الزمن إلى أن حان الوقت فأشعار الأبجدية العربية التي يراها تنطبق على أحاسيسه

الأمازيغية وهي ظاهرة فريدة من نوعها، هي تلك الكتب التي خطها المهدي بن تومرت في رسالتين هي المرشدة والتوحيد، أو تلك التي خلقها الإباضيون منذ العهد الرستمي (29) في الجزائر.

أما في منطقة القبائل فلم يعتبر الشيء الكثير بالأمازيغية سوى بعض التراجم والرسائل مثل ترجمة ابن عشير وتفسير خليل وكتاب في قواعد اللغة يسمى الأجرمية نسبة إلى منطقة (قرومة) بالأخضرية التي لا تزال إلى اليوم وكانت في سابق عهدها تعج بالعلماء والمفسرين والمترجمين أما في بجاية الحمادية التي ازدهرت بالحركة الفكرية والثقافية الإسلامية في القرون الوسطى فإن للمؤرخ عثمان الكعاك شهادة أوردها في كتابه بعنوان "الموجز في تاريخ البربر بدولة بني حماد يقول فيه: "دولة بني حماد كانت دولة بربرية صرفة" وهنا تطرح عدة استفسارات منها هل كانت لدولة بني حماد تراجم باللغة الأمازيغية وهل احتاجت إصدار الأوامر والأحكام باللغة الأمازيغية؟ كما وقع بالمغرب أيام الموحدين الذين ألفوا في العقائد والفقه؟.

الاستعارة للخط العربي وأبجديته والتأليف بها في اللغة الأمازيغية من دون أية عراقيل أو مشاكل ، وهو شيء فعلا لم يحدث مع الحضارات السابقة وكتاباتنا (27).

أشار الباحثان السالفا الذكر إلى أن الثقافة الأمازيغية شفوية و مع هذا، توجد المخطوطات لمؤلفات خاصة بنشر الإسلام في الأوساط التي لا تتحدث العربية، وهذه المخطوطات كلها أمازيغية بالخط العربي ، ودراستها تعد في غاية الأهمية خاصة في هذا الظرف وأشد ما تشهد عليه هذه المخطوطات هو توافق الأبجدية العربية مع اللغة الأمازيغية، كما تعتبر مفيدة في رسم الحركات وتبنى شكل حروف المد للأصوات الطويلة القصيرة الحركات وكذلك رسم طريقة رسم الصائت صفر بالسكون (28) مع العلم أن هذا الصفر اختراع عربي بل (بجائي).

إضافة إلى هذه الشهادة التاريخية الدالة على أن الأمازيغية وافقت الكتابة بالأبجدية العربية وخطها بدون صعوبة، فإن العربية وافقت أصوات اللغة الأمازيغية بدورها، ودخلت هذه الأخيرة ميدان التأليف، وأهم هذه المؤلفات التي لا تزال شاهدة على هذا الالتحام الثقافي بين العربية و

الفنية كالشعر والقصة والأمثال والحكم لا يزال حيا ومستمر في ذاكرة المجتمع وتقريب هذه الأعمال متواترة توارثتها الأجيال، فهناك من يجتهد في كتاباتها بالأبجدية العربية وهناك من يريد استعمال الأبجدية الأجنبية الدخيلة لكن التراث الشعبي لكل الأئمة لا يتوافق في كتابته باللغة الأجنبية بالقدر الذي ينسجم ويتناسق مع العربية والتجربة التاريخية التي عرضناها غنية عن التكرار، واستعمال الأبجدية باللغة الأجنبية في كتابة الأمازيغية غير بريء بل نابع من مخلفا الاحتلال الذي سيأتي التفصيل فيه.

ودرجة تأثر التراث الشعبي بالإسلام بلغ إلى درجة ترجمة قصص من القرآن وتواترها بين الناس شفاهة ، كقصة يوسف وقصة يونس وموسى وعيسى عليهم السلام وقصة أهل الكهف بالإضافة إلى بعض مآثر الصحابة عن بطولاتهم وشجاعتهم وأخلاقهم رضوان الله عليهم جميعا كعمر وعثمان وعلي تروى من ملاحم رائعة التصور والتفنن تشوق السامع إلى التردد على الراوي والاستزادة منه وغالبا ما كان هذا العمل يقوم به الأئمة في المساجد

الجواب أن دولة بني حماد كانت في جميع نظمها ودواوينها ومدارسها تعتمد اللغة العربية وهي اللغة الرسمية للدولة، ويعد ، الفضل في ذلك إلى الدولة الرستمية التي سارت أشواطا كبيرة في نشر العربية وترسيخها في البلاد، و لما جاءت الدولة الحمادية وجدت اللغة الأمازيغية قد انسحبت من سوق العلم فبقيت لغة التخاطب ولا تزال إلى الآن لأن في هذا العهد ليست الدولة في حاجة إلى إفهام الناس الأصليين أصول الدين ومبادئ لغة القرآن وهم كانوا يدرسون حتى في بيوتهم هذه المبادئ بالعربية ونبغ منهم علماء وشعراء وفنانون. وإذا كانت بعض النواحي لا تزال تشهد قصائد في مدح الرسول عليه السلام والاعتزاز بالإسلام ومآثر الخلفاء الراشدين بالأمازيغية في المناسبات الدينية والأعياد، فذلك يدخل ضمن التراث كالشعر الملحون في العربية (30).

غير أن ذلك لا ينفي بقاء بعض المراسلات بين العائلات إلى اليوم تكتب بالحرف العربي وتؤدي المعنى بكامله.

تأثير التراث الشعبي بالإسلام

التراث الشعبي الأمازيغي، و الأعمال

فلو أخذنا شاعرا آخر يشهد له الجميع بنبوغه وقوة معانيه وجمال تعابيره وهو " سليمان عازم " الذي عاش الفترة ما بين الاحتلال والاستقلال وذاق مرارة الغربة والإقصاء.

نجدّه مشبعا بقيم الثقافة الإسلامية وتكاد معظم معاني أغانيه (32) تنطبق على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ودرر من الحكم العالية كما أن نفس الكلام ينطبق على مجال الآداب العامة، ونظام الجماعة في الشناء والزجر كلها تعتمد الشريعة الإسلامية.

بداية التغيير والتحريف

كانت بداية القرن التاسع عشر هي بداية للتغيير والتحول في الكتابة الأمازيغية من الأبجدية العربية إلى الأبجدية الأجنبية، ولا سيما بعد ظهور جماعة المستشرقين وبالأخص الفرنسيين الذين شرعوا في استعمال الأبجدية اللاتينية في كتابة الأمازيغية ونقل تراثها وتم تهيمش الحرف العربي الذي كان سائدا، وتم إنجاز الأبحاث الميدانية التي كانت تسعى إلى جمع التراث والعمل الثقافي والفني الأمازيغي، وليس حبا في ترقية الثقافة الأمازيغية وتراثهم وإنما لخدمة مصالح استعمارية في الجزائر.

بعد صلاة المغرب والعشاء إلى يومنا هذا بالإضافة إلى ذلك السيرة الهلالية وقصص أخرى خيالية تتضمن معاني كالخلق الحسن، والشجاعة، و الكرم وتغلب الخير على الشر وغيرها وكانت اللغة العربية تدخل بكلمات وجمل من حين لآخر ليتضح المعنى أكثر وتتوسع دائرة الفهم للموضوع المروي. ونفس الشيء بالنسبة للشعر الأمازيغي والذي يتأمله ويبحث فيه خاصة منه الذي نظم قبل النصف من القرن الماضي يجد فيه آثار الدين ومعانيه بارزة بجلاء، وخاصة على يد الشيخ محند والحسين ومحمد او مختار وسي محند أو محند بل أن بعض المغنين الحاليين الذي يتظاهرون بالشعارات غير الدينية فإن نسبة كبيرة من معانيهم تعد من صميم الدين ولو كان لجوؤهم لها عن غير قصد أو غير فهم، لأن ثقافتهم العامة قد بنيت وراثيا على أساس دين إسلامي. لكن ضعف التدين أو التنصل (31). من أحكامه يعود إلى أسباب أخرى لا علاقة لها بالثقافة الأصيلة لسكان القبائل، وإنما يعود إلى تأثير الأفكار الوافدة و هشاشة الأفكار الموروثة ببغائها على مستوى التصور أو في مظاهر العادات.

المدى المتوسط والبعيد، ثم توالى الكتابة بالأبجدية اللاتينية رغم الصعوبة والاختلاف في نطق الحروف و الكتاب و أي اختلاف في الشكل والمضمون.

وخلاصة القول، هي أن التراث الإسلامي في جميع الأمم التي دخلها هوكل لا يتجزأ انبثق من القرآن والسنة، وطبع بخصوصيات كل شعب وكل مجتمع سواء في التعابير الشكلية أو الأصوات اللغوية ، وما يعد ميزة فاضلة للثقافة الإسلامية هو عدم إلغاء خصوصيات هذه المجتمعات وبقيت تتعايش معها، بحكم تجانس الألفاظ وتجانس الإحساس نفسه.

وقد ظهر ذلك التعايش في قمة ازدهار الحضارة الإسلامية الأندلسية والحمادية، وروى أن المذهب المالكي استعصت عليه الظروف للانتشار في الأندلس حتى وصلها علماء زواوة ونشروه بالحجة العلمية القوية والإقناع واكتفى هذا الوصف ابن خلدون للأمازيغ حيث قال فيهم " ..أما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم

فأول من قام بتغيير هذه الأبجدية هو الجنرال (هانوتو) الذي مكث أكثر من ثماني سنوات بمنطقة القبائل يبحث في التراث الأمازيغي ، و توجت أعماله بإدخال القبائلية على وجه الخصوص ،مجال التعليم وصدر في هذا الشأن مرسوم سنة 1885 يسمح بالقبول لتحضير شهادة في اللغة القبائلية في كلية الآداب جامعة الجزائر.(33)

ومن بين ما تضمنه المرسوم من شروط هو إعداد أسئلة الامتحان و الإجابات المقدمة بالأمازيغية بالحروف الفرنسية، ولنلاحظ معا هذا الفتح على الأولوية المعتمدة في هذا الترتيب.

والجنرال " هانوتو " لما تخلى عن الأبجدية العربية يعرف إلى ما يهدف إليه والغاية المرجوة من ذلك مستقبلا. فقد وجد " هانوتو " الساحة فارغة من المقاومة بعد حوالي 59 سنة من الاستعمار الذي أغلق الزوايا وشرذ طلابها وحاكم شيوخها وأحكم السيطرة على الأرض والعباد، ليستثمر في هذا الموضوع على

الملكة والإعفاء عن العيوب...."

ومن الله التوفيق، فإن أخطأت فمن نفسي
وإن أصبت فمن الله سبحانه وتعالى.

في خلال الحميدة وما جبلوا عليه من
الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم
ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز
الجوار وحماية التنزيل ورعي الأذمة وحبس